

هل يُفضي تحليل جذور السلوك الإنساني وتصحيحها إلى تحقيق سلامة القلب؟

لماذا يُعدّ فهم جذور السلوك الإنساني المحدد الأهم لسعادة الإنسان؟

هل تأملت يوماً سرّ الحركة التي تدفعنا للاستيقاظ صباحاً، أو الرغبة التي تسوقنا نحو الطعام؟ إن جذور السلوك الإنساني هي القوة الكامنة وراء كل تصرف؛ إنها بمثابة مهندس خفي يُشكّل خياراتنا وقراراتنا. فما من اختيار ينبعث إلا من منبع عميق، أي من تلك الدوافع الخفية التي تُصمم دواخلنا. فمثلاً، إصرار طفل على لعبة قد لا يكون مجرد رغبة سطحية، بل قد يخفي وراءه الحسد تجاه الأقران، أو الحاجة للاعتراف من الوالدين، أو حتى الإغراء الناجم عن تأثير إعلاني. وكذلك توجه شخص للرياضة، قد لا يكون هدفه صحة الجسد وحسب، بل ربما يكون سعيّاً لتخفيف الضغط النفسي، أو دافعاً لإثبات الذات، أو مجارة لتيار اجتماعي. هذه الدوافع هي البذور الحقيقية التي تُثمر سلوكاً ظاهراً. يمنحنا الكشف عن هذه الجذور القدرة على اختراق ستار الأفعال والوصول إلى فهم أعمق للذات. هذا الوعي هو الخارطة الأهم التي ترشدنا نحو تحقيق القلب السليم.

النتائج المترتبة على سلوكنا، سواء في العلن أو الخفاء، تتغذى من مصادر متباينة: فقد يخدم شخص ما الآخرين بدافع التقرب من الله ورضاه، بينما يخدم آخر ذات العمل ولكن بدافع طلب الشهرة والرياء. هنا يتبين أن الفعل الواحد ظاهراً قد يقود إلى نهايتين مختلفتين تماماً. إن إدراك هذه الجذور يُعيننا على تشخيص الدوافع الكامنة وراء كل فعل، ويفتح لنا باباً لفهم التعقيد البنيوي لوجودنا ومعرفة حقيقتنا. ولهذا، يبقى السؤال المحوري: هل تنبع جذور سلوكنا من [قلب سليم](#) مزدهر، أم من قلب مريض؟ وما هي عوامل تغذي هذه الجذور وتصنعها؟ للإجابة، لا بد من تعميق البحث.

٥٢ ضرورة استئصال جذور السلوك الإنساني

لقد وُلدنا في الدنيا لنعيش فيها فترة مؤقتة، على أن ننتقل بعدها إلى العالم الآخر. إن الحياة هنا عابرة، لكن نتائجها دائمة. فرغم قصر المدة التي نقضيها، إلا أنها ترسم مصيرنا في العوالم البعدية؛ مثل [البرخ](#) و[القيامة](#) والأبدية. هذا المصير الأبدي هو نتاج أعمالنا وأفكارنا وخياراتنا وعلاقاتنا اليومية. النقطة المحورية

هنا هي أن منشأ الأعمال ونوعيتها أهم بكثير من مظهرها وكميتها. ولهذا، يجب أن نواجه أنفسنا بمجموعة من التساؤلات المحورية:

- لماذا أقدم على هذا الفعل تحديداً؟
 - لماذا اخترت هذا الصديق؟
 - ما الذي يدفعني لارتداء هذا الثوب؟
 - لماذا أدرس أو أمارس الرياضة؟
 - ما الدافع وراء إظهار المحبة لشخص ما؟
 - هل يرضى الله عن هذا العمل، وهل يقربني إليه أم يُبعدني عنه؟
- المثير للاهتمام أن توقيت الانشغال بهذه الأسئلة يختلف بين الأفراد. فالبعض يفكر فيها قبل الإقدام على العمل، بينما يتذكرها آخرون بعد الانتهاء، أي بعد فوات "الوقت الذهبي" للإجابة. ومع أن كلا الحالتين تحمل ثمراً للإنسان، إلا أن الوقاية من المرض لا تُقارن أبداً بالعلاج الياؤس بعد الإصابة به. إذا بادرنا إلى علاج الدافع قبل وقوع الفعل، نكون قد حَصَّنَّا أنفسنا من الإصابة بشتى أمراض وعفونات القلب التي يصعب علاجها وتستنزف الوقت. أما إذا فكرنا بعد وقوعه، فسنضطر إلى بذل طاقة هائلة، ووقت، وصبر، وجهد لعلاج أورام سرطانية منتشرة ونيران اشتعلت في قلوبنا. ونظراً لتفاوت طاقات الأفراد، حيث قد ينفد صبر أحدهم في منتصف فترة العلاج ويتركه، فإن المسار الأعقل والأقصر والأكثر ربحية للوصول إلى قلب سليم هو أن نتوقف قليلاً قبل أي فكرة أو حركة، وأن نبحت عن جذرها ومنشئها في القلب، لنتجنب بذلك الخسائر الجسيمة التي تلي الفعل.

أنواع جذور السلوك الإنساني

إن الركن الأول وأهم الأسس للنجاح في أي مسعى هو معرفة دقيقة به واكتساب العلم الكافي عن أبعاده. فما لم نمتلك معلومات وافية وجيدة عن شيء ما، لا نعرف كيف نتصرف على النحو الصحيح في نطاقه، مما يؤدي إلى المزيد من الخسائر وإهدار الموارد. فالبحث عن كنز دون خريطة يؤدي حتماً إلى تضييع الوقت والجهد دون بلوغ الهدف المنشود.

لذا، فإننا في مسيرتنا نحو اكتساب قلب سليم وتحقيق سعادة النفس، مُلزمون أولاً بمعرفة ذواتنا الحقيقية، واكتساب علم كافٍ حول مراتب النفس وقواها المختلفة، كي نتمكن من تمييز المسار الصحيح في المنعطفات الحاسمة.

من الضروري أن ندرك أن العلم بمثابة مصباح يُضيء الطريق للإنسان، لكن الإنسان هو من يجب أن يتحرك ليصل إلى وجهته. إن اكتساب العلم هو المرحلة الأولى لبدء مسار قلب سليم، حتى نتمكن من معرفة جذور سلوك إنساني على نحو أفضل. في كل لحظة، يجد الإنسان نفسه بين تجاذبين أو مسارين مختلفين لكل فكرة أو قرار أو عمل، وهو مُضطر لاختيار أحدهما. من الأهمية بمكان أن ندرك ماهية فكرة أو قرار يتوَلَّد في داخلنا، وأن نعي مصدر هذا النداء. فهل هذا النداء صادر عن الجزء الإلهي من نفوسنا؟ أم أن منشأه يعود إلى غرائز دونية أو قوى مادية (كالنفس الجمادية، النباتية، الحيوانية، أو العقلية)؟ أم أنه من وحي الشيطان الذي يبثه فينا؟

إذا اكتشفنا أن الدافع هو نداء الخير في قلوبنا، فعلينا أن نمضي فيه. أما إذا وجدنا أن جذور سلوكنا ومصدر إلهاماتنا تكمن في همسات الشيطان ووساوسه أو في ميول الجوانب الأدنى من وجودنا، فعلينا أن نُبادر فوراً إلى تغيير هذا المصدر، والتحول نحو تنمية الجانب الإلهي للقلب وتطهيره من الأدران والأمراض.

أهمية التركيز على جذور السلوك في الحياة اليومية

إن الاهتمام بجذور السلوك الإنساني لا يقتصر على قرارات كبرى ومصيرية وحدها، بل ينسحب على أبسط تصرفاتنا اليومية التي يمكن أن تنبع من دوافع متباينة تماماً. لنفترض أن شخصين يمارسان الرياضة لسنوات: أحدهما يفعل ذلك لإظهار جسده واجتذاب أنظار الآخرين، والآخر يمارسها لكسب طاقة أكبر يستغلها في الخدمة وعمل الخير. كلا الفعلين رياضة، لكن جذر أحدهما هو الاستعراض والتفاخر، بينما جذر الآخر هو نية إلهية.

أو لننظر إلى عالم يقضي سنين في اكتشاف دواء لأمراض مستعصية. وفي المقابل، شخص آخر يوظف ذات العلم لإنتاج أسلحة أو فيروسات. جذور السلوك هنا مختلفة تماماً؛ فواحد ينبع من قلب سليم، والآخر ينبع من وساوس شيطانية. السؤال المهم الآن: إذا أدركنا أن جذر سلوكنا فاسد، فما العمل؟

الإجابة ليست يسيرة، لكنها ممكنة التحقيق. يجب علينا في تلك اللحظة بالذات أن نُبادر بتوكّل على الله إلى تغيير منشأ العمل. هذا يعني أننا نصحح الخلل من أساسه. فمتى وُضعت لبنة أولى صحيحة، أصبح استكمال بناء القلب السليم أمراً أيسر.

إن المراقبة المستمرة للقرارات تحصّن الإنسان ضد الوسوس. فإذا اخترنا المسار الصحيح من البداية، سنكون كالبنّاء الذي يرفع جداراً قوياً وثابتاً. إن معرفة جذور سلوك إنساني ليست مجرد مبحث نظري أو أخلاقي، بل هي استراتيجية حياتية تُفضي إلى السعادة الأبدية. كل عمل يصدر منا ينطلق من نقطة ما، وإذا كانت هذه النقطة ملوثة، فإنها تُفسد المسار بأكمله. أما إذا كانت الجذور سليمة ونقية، فإن ثمرة سلوكنا ستكون حلوة ومباركة.

من خلال التساؤل الدائم بـ: "لماذا"، ومن خلال علمنا بأنفسنا، ومن خلال مراقبة منشأ قراراتنا، يمكننا أن نحمي قلوبنا من التلوث. والقلب السليم هو الذي يقرر سعادة الإنسان في نهاية المطاف. لذلك، فإن إدراك جذور السلوك وتصحيحها ليس مجرد مفتاح لسلامة القلب، بل هو عامل أساسي للقوة، والسكينة، وزيادة التشبّه بصفات الخالق. إنه مسار يقودنا إلى القلب السليم والنعيم السرمدى.